﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزّخرف: 81 - 83]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انتقالٌ مِن مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أن يكون لله ولد

لَمّا جَرى ذِكْرُ الَّذين ظَلَموا بادِّعاءِ بُنوَّةِ المَلائِكَةِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزّخرف: 65]؛ عَقِبَ قَولِه: ﴿*وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزّخرف: 57]، وعَقِبَ قَولِه قبْلَه: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزّخرف: 19]، وأُعقِبَ بما يَنتَظِرُهم مِن أهوالِ القِيامَةِ، وما أُعِدَّ لِلَّذين انخَلَعوا عن الإشراكِ بالإيمانِ؛ أمَرَ اللّهُ رَسولَهُ أن يَنتَقِلَ مِن مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أن يَكونَ للّه ولَدٌ؛ جَمعًا بين الرَّدِّ على بَعضِ المُشرِكين الَّذين عَبَدوا المَلائِكةَ، والَّذين زَعَموا أنَّ بعضَ أصنامِهم بَناتُ اللّه، مِثلُ اللّاتِ والعُزَّى، فأمَرَه بقَولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[1]، ومناسبةُ الَّتي تليها: أنَّه لَمّا قال تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾؛ نزَّه نَفسَه تَنزيهًا تامًّا عمّا يَصِفونَه به مِن نِسبةِ الوَلَدِ إليه؛ مُبَيِّنًا أنَّ رَبَّ السَّماواتِ والأرضِ ورَبَّ العَرشِ جَديرٌ بالتَّنزيهِ عن الوَلَدِ، وعن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: (عبد)، وأصلُه يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[2]، ومنه قولُهم:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 263، و264.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذَلَّلٌ؛ لكثرةِ وطْءِ الأقدامِ له[1]، والعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كان أو رقيقًا، ويُجمَعُ على عَبيدٍ وعِبادٍ، يُقالُ: فلانٌ عَبدٌ للّه، أي: مَملوكٌ لَهُ[2]، يُذْهَبُ بذلك إلى أنَّه مَرْبوبٌ لِباريه جَلَّ وعَزَّ، والعابِدُ: الموحِّد[3]، "وعبادَةُ اللّه تعالى: الذُّلُّ لهُ بالانقياد لما أمَرَ، والانتهاءِ عَمّا نهى، وحَدَّ بَعضُهم العِبادَةَ، فقال: هِيَ الأفعالُ الواقِعَةُ على نِهايَة ما يُمكِنُ من التَّذلُّلِ والخُضوع، والمُجاوزَةِ لتذلُّلِ بعض العِباد لبَعضٍ"[4]، ومعنى ﴿ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ هنا: المؤمنون باللّه من أهل مكَّة، الموحِّدون له على أنَّه لا ولدَ له، الشّاهدون على ذلك[5].

والأفضل أنَّ ﴿ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ من (عَبِدَ يعبَد) بزنة أنِفَ يَأنَفُ، والعابِدُ: الرّافض، والمعنى: قل إن كان للرَّحمن ولدٌ؛ فأنا أوَّلُ الرّافضين لهذا الإله، وقد حكى الجوهريُّ عن أبي عمرو في قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ أنَّه من الأنَف أو الغضب، وحكاه الماورديُّ عن الكسائيِّ والقتيبيِّ، وبه قال الفرّاء، وكذا قال ابنُ الأعرابيِّ: إنَّ معنى ﴿ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: الغِضابُ الآنفون[6].

2) ﴿سُبۡحَٰنَ﴾: أصلُ السَّبْحِ: البُعدُ، والتَّسبيحُ: التَّبعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأرضِ، أي: أبعَدتُ فيها[7]، والتَّسبيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرئةُ، يُقالُ: سبَّحتُ اللّهَ، وسبَّحتُ له، أُسَبِّحُهُ تسبيحًا وسُبحانًا، أي: نَزَّهتُه وبَرَّأتُه من كلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[8]، وسُبحانَ: اسمُ التَّسبيحِ، وهو اسمُ مصدر (سَبَّحَ) المُضاعَف، وليس مصدرًا؛ لأنَّهُ لم يَجئ على أبنيةِ مصادرِ الرُّباعيِّ، وقيل: هو مصدر (سَبَحَ) مُخفَّفًا بمعنى نَزَّهَ، فيكونُ كالغُفرانِ والشُّكرانِ، وقد كَثُرَ استعمالُه منصوبًا على المفعوليَّةِ المُطلَقَةِ بإضمار فِعله[9]، والمقصودُ بـ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ في الآية: التَّنزيهُ والتَّبرئةُ له سبحانه عن جميعِ ما يَصِفُهُ به هؤلاء المشركون من نسبةِ الولد وغيرِ ذلك من الأشياء الَّتي لا ينبغي أن تُضافَ إليه[10].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 7.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).
(4) ابن الجَوزيِّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 431.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 648، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 835.
(6) الثّعلبي، الكشف والبيان، والقنّوجي، فتح البيان، سورة الزّخرف، آية: 81.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 413.
(10) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.

3) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: أصلُ (عرش) يَدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيءَ، وعَرَّشْتُهُ، أعْرُشُهُ، تَعْريشًا، أي: رَفَعْتُهُ، ومِنهُ العَريشُ، وهو بِناءٌ يُرفَعُ يُستَظَلُّ بِهِ[1]، وسُمِّي مجلسُ السُّلطانِ عَرْشًا اعتبارًا بعُلوِّه[2]، والعَرْش في كلام العرَب: سريرُ المَلِك، يدلُّ على ذلك سريرُ بلقيس ملكةِ سبأ، ومنه: عرشُ البيت: سَقْفُه[3]، و"العَرْش: اسمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بِجَميعِ السَّماواتِ، سُمّي عَرْشًا؛ لأنَّه دالٌّ على عَظَمَةِ اللّه تعالى، كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبَهُ من المُلوكِ"[4]، والعرشُ هو أعظمُ الأجرام وأقوى الموجودات[5].

4) ﴿يَصِفُونَ﴾: الوصفُ: ذِكرُ الشَّيء بِحليتِه ونَعْتِه، والصِّفةُ: الحالةُ الَّتي عليها الشَّيءُ من حِليتِه ونَعتِه[6]، وأصلُه من تحليةِ الشَّيءِ، واتِّخاذِ الشَّيء هيئتَه التّامَّة[7]، والوصفُ قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا، يُقال: لسانُه يَصِفُ الكذب، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النّحل: 116]، وكَثُر ذِكْرُ الوصفِ بمعنى الكذب[8]، ومعنى ﴿يَصِفُونَ﴾، أي: يُكَذِّبون[9].

5) ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: وذَرَ، يَذَرُ، والأمرُ منه: ذَرْ، وذَروا: فعلُ أمرٍ، لم يَرِد في اللُّغة استعمالُ ماضيه ولا مصدره، ولا يستعملُ منه سوى المضارع والأمرِ، وهو بمعنى التَّركِ والإهمال، تقول: ذَرْهُ، أي: دَعْهُ واتركْهُ، ويقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لقلَّة اعتدادِه به، وفيه معنى التَّهديدِ والوعيد، والوَذَرَةُ: قِطعةُ اللَّحمِ الصَّغيرةِ، وتَسميتُها بذلك لِقلَّةِ الاعتدادِ بها[10]، ومعنى ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: موافِقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: فاترُكْهُم[11].

6) ﴿يَخُوضُواْ﴾: (خوض) تدلُّ اشتقاقاتُها على تَوَسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ، يُقالُ: خُضْتُ الماءَ وغَيْرَهُ، وتَخاوَضوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضوا، وتَداخَلَ كَلامُهُم[12]، وأصلُ الخَوضِ:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 335، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عرش).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 249.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 836.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وصف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصف).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (وصف).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652.
(10) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وذر).
(11) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 837.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).

المَشيُ في الماءِ وتحريكُه، ثُمَّ استُعمِلَ في التَّلَبُّسِ بالأمر والتَّصَرُّفِ فيه، يقال: خاضَ القومُ في الحَديثِ، وتَخاوَضوا، أي: تَفاوَضوا فيه، والخَوْضُ مِنَ الكَلامِ: ما فِيهِ الكَذِبُ والباطِلُ، وأكثَرُ ما في القُرآنِ الكريمِ وَرَدَ فِيما يُذَمُّ الشُّروع فيه[1]، ومعنى ﴿يَخُوضُواْ﴾: يدخلوا في باطلهم[2].

7) ﴿يُلَٰقُواْ﴾: (لقي) أصلٌ يدلُّ على تَوافي شَيئَينِ وتقابُلِهما، وكلُّ شيءٍ استَقبَلَ شَيئًا، أو صادَفَهُ؛ فَقَد لقِيَه[3]، وكلُّ (لَقِيَ والتَقى) هي بمعنى المقابلة والوجودِ القويِّ، أي: يستقبله، ويَلقاه، ويَجِدُه[4]، واللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحد منهما، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحسِّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة[5]، ومعنى ﴿يُلَٰقُواْ﴾: موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ.

8) ﴿يُوعَدُونَ﴾: أصلُ (وعد) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ على تَرجيَةٍ بِقَولٍ، يُقالُ: وعَدْتُهُ أعِدُهُ وعْدًا، ويكونُ ذلك بِخَيرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعِيدُ؛ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[6]، والوَعْدُ: مَعروف، وعَدتُ الرَّجلَ أعِدُه وعْدًا حسنًا من مال وغَيره، وفُلانٌ وفيُّ الوَعْدِ والموعود[7]، والمَوعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ[8]، والوعدُ هنا بمعنى الوعيد[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُلقِّنُ اللّهُ تعالى نَبيَّه الحُجَّةَ الَّتي يَرُدُّ بها على المشركينَ، فيقولُ: قُل - يا مُحمَّدُ - لِمُشرِكي قَومِك: إن كان للرَّحمن ولدٌ فأنا أوَّلُ الرّافضين لهذا الإلَه؛ لأنَّه محتاجٌ له، وأنا محتاجٌ ناقصٌ، ولا أعبد ناقصًا.

تلقينُ الحُجَّة للنَّبيِّ وتنزيهُ اللهِ سبحانه عن الوَلَدِ والشَّريك

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوض).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 837.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقى).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (لقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وعد).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾:

تحقيقٌ للحَقِّ، وتَنبيهٌ للكفرة

غرضُ الأمر بالقول في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ تَحقيقٌ لِلحَقِّ، وتَنبيهٌ للكفرة على أنَّ مُخالَفَة النَّبيِّ ﷺ للمشركين بِعَدَم عِبادَتِه؛ لِما يَعبُدونَهُ مِنَ المَلائِكَة عليهم السلام، لَيسَت لِبُغضِه وعَداوَتِه لَهم أو لِمَعبودِيهِم، بَل إنَّما هو لِجَزمِه بِاستِحالَةِ ما نَسَبوا إلَيهِم، وبَنَوا عَلَيها عِبادَتَهم، مِن كَونِهِم بَناتِ اللّه تَعالى[1]، والتَّعبيرُ بلفظ ﴿قُلْ﴾؛ ليعلموا أنَّ مضمونَ هذا القول تكليفٌ من اللّه تعالى، وأنَّ الرَّسولَ مُبلِّغٌ عن اللّهِ فيه، بما يُؤَكِّدُ رسالتَه ومقامَه عند اللّهِ سبحانه، وفيه تلقينُ النَّبيِّ المُرسَل الحُجَّةَ، وهو منهجٌ في الحِجاجِ أصيل.

معنى ﴿إِن﴾ في: ﴿إِن كَانَ﴾:

نفيٌ للولد على أبلغِ وجهٍ، وأتمِّ عبارةٍ، وأحسنِ أسلوبٍ

﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، إمّا شرطيَّة على سبيلِ الافتراض، ويكون التَّقدير: قل يا محمَّد إن ثبتَ للّه ولدٌ؛ فأنا أوَّلُ مَن يرفض عبادة هذا الإله، والغرضُ التَّأكيد على أنَّ الحقَّ سبحانه مُنَزَّه عن الولد والصّاحبة، أو أن تكون ﴿إِن﴾ نافيةً بمعنى (ما)، وتقديرُه: ما كان للرَّحمن من ولدٍ، ويكون قولُه: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ابتداءَ كلامٍ[2]، تفرَّع عمّا سبقه من نفيِ أن يكونَ للّه ولدٌ سبحانه[3].

إيثارُ حرف ﴿إِن﴾ على اعتبارها شرطيَّة:

تلطُّفُ الخطابِ القرآنيِّ في الإقناعِ تأكيدٌ للوحدانيَّة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾ – الَّتي لا يكون التَّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيهِ – في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 648، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 193.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265.

وَلَدُ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾؛ للدَّلالة على انتفاءِ كَونِ المشركين العابدين على حقٍّ في عبادتهم، وللتَّأكيد على الوحدانيَّة بأبْلَغِ الوُجوهِ وأقواها؛ إذ في الخطابِ تلطُّفٌ في الإقناع، برَبطِ الفعلِ بالاستحالة، وعلى كَوْنِ رَسولِ اللّه ﷺ عَلى قوَّةِ يَقينٍ وثَباتٍ قَدَم في بابِ التَّوحيدِ ما لا يَخْفى، مَعَ ما فيهِ مِن استِنزالِ الكَفَرَةِ عَن رُتبَةِ المُكابَرَةِ[1].

توجيهُ القراءةِ في: ﴿وَلَدُ﴾:

في القراءتين إثراءٌ للمعنى؛ إذ نفتا عن اللهِ الولدَ والأهلَ

قَرَأ جمهور القرّاء ﴿وَلَدُ﴾ بفَتحِ الواوِ وفَتحِ اللّامِ، وقرأهُ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿وُلۡدُ﴾ بضَمِّ الواوِ وسُكونِ اللّامِ جَمْعُ ولَدٍ[2]، نحو: أسَد، وأُسْد، وقال الأخفش الأوسط: الوَلَدُ بالفتح: الابن، والابنة، والوُلْد بالضَّمِّ: الأهل، وقيل: هما لغتان بمعنًى واحد[3]، وفي الجمع بين القراءتين إثراءٌ للمعنى؛ إذ نفتا عن اللّهِ الولدَ والأهل.

فصْل: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عمّا قبلَها:

ربُّنا تعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ ما نسبهُ إليه المشركون

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عن الَّتي قبلها؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصال؛ لوقوعها تكملةً لجُزئَي الشَّرط، أي: تَكمِلَةً لِما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأن يَقولَه، وقد جاءت الجملةُ كَلامًا مُستَأنَفًا من جانبِ اللّهِ تعالى؛ لإنشاءِ تَنْزيهِه عمّا يَقولون، فتكون مُعترضةً بين جُملةِ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدُ﴾، وجُملَةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهُ﴾[4].

غرضُ التَّسبيح في: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وسرُّ التَّعبير بالمصدر:

تَنزُّهُ ذاتِه المُقدَّسة تنزُّهًا لائقًا به سبحانه

يتمثَّلُ غرضُ تسبيحِ اللّهِ لذاته العَليَّة أو أمره بالتَّسبيح في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، في كمالِ تنزيهه سبحانه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 319، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265.

(3) محيسن، المغني في توجيه القراءات: 4/ 16.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265.

عمّا يصفه المشركون من الولد والشَّريك وكلِّ ما لا يليقُ به؛ مبالغةً من جهةِ الاشتقاق من السَّبح[1]، ومبالغةً من جهةِ إسنادِ التَّنزُّهِ إلى ذاتهِ المُقدَّسة، أي: تَنزُّهُ ذاتِه المقدَّسة تنزُّهًا لائقًا به سبحانه، وقد أفاد التَّعبير بلفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ المبالغةَ من جهةِ العدول عن المصدر الدّالِّ على الجنسِ إلى الاسم الموضوعِ له خاصَّةً، ومن جهةِ إقامته مقامَ المصدرِ مع الفعل، أو باعتباره مصدرًا كـ (غفران)، أُريدَ به التَّنزُّهُ التّامُّ والتَّباعُد الكُليُّ.

بلاغة التَّذييل في: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

في جملةِ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَعنَى التَّذييلِ لقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾؛ لأنَّها نَزَّهَتِ اللّهَ عن جَميعِ ما يَصِفونَه به من نِسبَةِ الوَلَدِ وغيرِ ذلك[2]، أي: جاء التَّذييلُ؛ ليُؤَكِّدَ نفيَ كينونةِ ولدٍ له سبحانه، ويُقَرِّرَ ذلك، وليُقدِّمَ دليلًا جليًّا يَدْحَضُ ادِّعاءاتِهم؛ وذلك بتنزيهِ اللّهِ ربِّ السَّماوات وربِّ الأرض عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلالِه، وعن كلِّ شائبةٍ ونقصٍ.

تأكيدُ نفي كينونةِ ولدٍ له سبحانه، بتنزيهه عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ الرُّبوبيَّة دونَ الأُلوهيَّة:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الرَّبِّ دون (إله) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ زيادةً في التَّشنيع على المشركين؛ إذ أشارَ في تنزيهِ اللّهِ وتقديسِهِ إلى عظيمِ إبداع الله في خلقِ السَّماوات والأرض، وعنايتِه بهما، ومُلْكِه لهما ﷻ، بما ينفي عنه النَّقصَ وحاجتَه إلى الولد، فالرُّبوبيَّة فيها معنى المُلْك والتَّربية والرِّعايةِ والعنايةِ والتَّدبير والقَوامة والإصلاح والعطاء والإنعام، والمعنى: سبحانَ ربِّ السَّماوات والأرض اللَّتَين كلُّ ما فيهما ومَن فيهما مقهورٌ مَربوبٌ، محتاجٌ لا يَصِحُّ أن يكون له منه سبحانه نسبةٌ بغيرِ العبوديَّة

عظيمُ إبداعِ الله ومُلْكِه وإنعامِه ينفي عنه النَّقصَ وحاجتَه إلى الولد

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265، و266.

بالإيجاد والتَّربية[1]، ولهذا المعنى ذاتِه صرَّح بالاسم الظّاهر (ربّ)، ولم يضمره بقوله: (سبحانه).

سرُّ إضافة اسمِ الرَّبِّ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وإلى ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾:

في إضافةِ اسم الرَّبِّ إلى أقوى الموجودات وأعمِّها وأعظمها في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾، تنبيهٌ على أنَّها وما فيها من المخلوقاتِ حيثُ كانتْ هي تحتَ مَلكوتِه ورُبوبيَّتِه، فكيفَ يُتَوهَّمُ أنْ يكونَ شيءٌ منها جُزءًا منهُ سبحانَهُ[2]، وهو ينافي وجوبَ الوجودِ[3]، فقد خلقَ العوالمَ ونظامَ نمائِها ودوامها، وعُلِمَ من كونه خالقَها أنَّه غيرُ مسبوقٍ بعَدَمٍ، وإلّا لاحتاجَ إلى خالقٍ يَخلقُه، واقتضى عدمُ السَّبقِ بعَدَمٍ أنَّه لا يَلْحَقُه فناءٌ، فوجودُ الولدِ له يكونُ عبثًا[4].

من كانتِ المخلوقاتُ تحتَ مَلكوتِه ورُبوبيَّتِه، فكيف يتَّخذُ منها ولدًا؟!

الغرضُ من تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض):

قدَّمَ البيانُ الحكيمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مناسبةً للمقام؛ فهو مقامُ تنزيهٍ، وجِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرُ؛ لأنَّه أبعَدُ عن النَّقصِ والنَّقيضِ[5]، ولأنَّ السَّماواتِ أعظمُ الأجرامِ، وأقواها، وأعمُّها.

جِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرُ بالتَّقديم؛ لأنَّها أدلُّ على التَّنزيهِ والتَّعظيم

نُكْتَةُ تكريرِ اسمِ الرَّبِّ:

أطنبَ البيانُ الحكيم بتَكريرِ اسم الرَّبِّ مع لفظِ العرش في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ توكيدًا لربوبيَّتِه سبحانه على كلِّ شيء، وتَفخيمًا لِشَأنِ العَرشِ، وتنويهًا به[6]، بما يدلُّ على أنَّ مَن هذا مُلْكُه لا حاجةَ له للولد، الَّذي يُحتاجُ إليه لسَدِّ عجزٍ، أو ضَعفٍ، أو تحقيقِ معونة.

في تَفخيم شأنِ العَرشِ مبالغةٌ في تنزيهِ الله وتقديسِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

نُكْتَةُ فصْل ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ عن سابقه:

ربُّ العرش هو ربُّ السَّماوات والأرض سبحانه

لم يربطِ البيانُ الحكيم في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ بين ربوبيَّته للسَّماوات والأرض وربوبيَّته للعرشِ بالعاطف، فلم يقل: (ربُّ السَّماوات والأرض وربُّ العرش)؛ وذلك لِما بين الجُملتَين من كمالِ اتِّصال؛ لأنَّ ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ بدلٌ من ﴿رَبِّ﴾ الأولى[1]، ولأنَّ العرشَ من السَّماوات[2].

سرُّ الإضافة في: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ﴾:

مبالغةٌ في تنزيهِ الرَّبِّ الخالقِ المالكِ المدبِّرِ المُستحقِّ للعبادة عن اتِّخاذِ الولد

إضافة لفظ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للمبالغةِ في تنزيهِ الرَّبِّ الخالقِ للسَّماوات والأرض، المالكِ لهما، المُدبِّرِ لأمورهما، ممّا يدلُّ على عظَمةِ هذا الرَّبِّ المُستحقِّ للعبادة سبحانه، الَّذي يستحيلُ أن يكون له ولدٌ أو شريك.

نُكْتَةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد (الأرْض):

جمعُ السَّماوات أبلغُ في التَّفخيم، وإفرادُ الأرض أخفُّ في النُّطق

جمعَ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وأفردَ (الأرض) في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ مناسبةً للمقام الَّذي هو مقامُ تنزيهٍ وتعظيم، وهو أظهرُ في السَّماواتِ السَّبعِ وأجرامها العظيمة ذاتِ النِّظامِ الخاصِّ، المُتفاوتةِ بالصِّفات والآثارِ والحركات، ولكونها أشرفَ من الأرض، والجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيدِ[3]، وأُفردت الأرضُ تخفيفًا؛ إذ جمعُ الأرضِ ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس (أرضون، أرضين)، ولهذا لم تُجمَع الأرضُ في القرآن[4].

معنى (ما) ودلالتُها في: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

في الموصوليَّة تنزيهُ اللهِ عن كلِّ وصفٍ لا يليقُ به سبحانه

(ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ اسم موصول، والتَّقدير: عن الَّذي يصفونه به، وقد عبَّر البيانُ القرآنيُّ به مع صلته؛ لقصدِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 429.

التَّعميم؛ لأنَّ (ما) من ألفاظِ العموم، فيَشملُ كلَّ وصفٍ لا يليقُ باللّه سبحانه من نسبةِ الولد أو الشَّريك أو غيرِ ذلك، ويحتملُ أن تكونَ مصدريَّةً، والتَّقدير: عن وصفهم للّه الولد[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَصِفُونَ﴾:

استمرارُ المشركين في وصفِ اللّه بما لا يليقُ هو دلالةٌ على شدَّةِ طغيانهم

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة في قوله: ﴿يَصِفُونَ﴾ يُشيرُ إلى إيغالِ المشركين في الشِّرك، واستمرارِهم في وصفِ اللّه بما لا يليقُ به من نسبة الشُّركاء والأبناء له، وتجدَّد ذلك منهم، بما يدلُّ على شِدَّة طغيانهم وضلالهم واستمرارهم على هذه الحال، ويُؤكِّدُه قولُه تعالى بعدَه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

معنى الفاءِ في: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

تأييسٌ من إجداءِ الحُجَّةِ في الكافرين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ إمّا تفريعيَّة، والجملةُ اعتراضٌ بتَفريعٍ عن تَنْزيهِ اللّهِ عمّا يَنسُبونَه إليه من الوَلَدِ والشُّركاءِ، وهذا تَأييسٌ من إجداءِ الحُجَّةِ فيهم، وأنَّ الأوْلَى به مُتارَكَتُهم في ضَلالِهم، إلى أن يَحينَ يَومٌ يَلقَون فيه العَذابَ المَوعودَ، وهذا متحقِّقٌ في أئمَّةِ الكفر الَّذين ماتوا عليه، مثل أبي جهل وأُميَّة بن خَلَف وشيبة بن ربيعة، وغيرِهم ممَّن قُتلوا يومَ بدر[2]، أو أنَّه تفرَّعَ عن ظهورِ الحقِّ بعد بُطلانِ شُبهتِهم وبيانِ أُغلوطتِهم معرفةُ أنَّهم فاعلون بوضعِ الأشياء في غير مواضعها، فعلَ الخائضِ اللّاعب[3]، أو أنَّها رابطة لجوابِ شرط مُقدَّر[4]، والتَّقدير: "إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيُّها الرَّسول الكريم - فاتركْ هؤلاء الكافرين يخوضون في باطلهم، وينهمكون في لعبهم"[5].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 13/ 112.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 105.

الغرضُ من التَّعبير بالأمر في: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

تهديدٌ للكافرين على أقوالهم الباطلة، وتسليةٌ للرَّسول وتخفيفٌ عنه

الأمرُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ والوعيد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالِهم الشَّنيعة، مِن قَبيلِ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصّلت: 40][1]، يعني: قد ذُكِرتِ الحُجَّةُ القاطعة على فسادِ ما ذكروا، وهم لم يلتفتوا إليها؛ لأجل كونهم مستغرقين في طلبِ المال والجاهِ والرّياسة، فاتركهم في ذلك الباطل واللَّعب حتّى يصلوا إلى ذلك اليوم الَّذي وُعِدوا فيه بما وُعِدوا[2]، وفيه أيضًا دعوةٌ لرسولِ الله أن يُهوِّنَ الأمرَ على نفسه، ولا يشقَّ عليها بسببِ عناد قومِه وتماديهم في ضلالهم، فالحقُّ سبحانه يُسلِّي رسولَه، ويُخفِّفُ عنه.

نُكْتَةُ الإضمار دونَ الإظهار في: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾:

في الإضمارِ تقليلٌ من شأنِ الكافرين واستخفافٌ بهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المشركين بالضَّمير دونَ الاسمِ الظّاهر، في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾؛ تقليلًا من شأنهم، واستخفافًا بهم، فهُم أقلُّ من أن يذكرَهم، وكذلك للاختصارِ، فالسّياق عنهم.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجمع في: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾:

استحقاقُ أئمَّةِ الكفر التَّهديدَ الإلهيَّ؛ لاجتماعهم على الجهالةِ والخوضِ في الباطل

في التَّعبير بضميرِ الجماعة دلالةٌ على كثرتهم، وإشارةٌ إلى اجتماعهم على الجهالة، والخوضِ في الباطل في الأحاديث، ولَعِبِهم في مَواقِعِ الجِدِّ حِين يهزؤون بالإسلام، ومِن ثَمَّ استحقاقُهم كلِّهم لهذا التَّهديدِ الإلهيِّ، ومُتاركتُهم في ضلالهم إلى أن يحينَ يومٌ يَلْقَون فيه العذابَ الموعود، وهذا متحقِّقٌ في أئمَّة الكُفر الَّذين ماتوا عليه، وهم الَّذين كانوا متصدِّين لمُحاجَّة النَّبيِّ ﷺ، ومجادلته والتَّشغيبِ عليه، مثلِ أبي جهل، وأُميَّةَ بنِ خَلَف، وشيبةَ بنِ ربيعة، وعتبةَ بنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 647.

ربيعة، والوليدِ بنِ عتبة، والوليدِ بنِ المُغيرة، والنَّضرِ بنِ عبد الدّار، ممَّن قُتلوا يومَ بدر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع المجزوم ﴿يَخُوضُواْ﴾:

إعطاءُ الكفّار فرصةً واستمرارُهم في خوضهم ولعبِهم دليلٌ على شدَّة ضلالهم

جُزِمَ فعل ﴿يَخُوضُواْ﴾، وفعل ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ بلام الأمر المحذوفة، أو في جواب الطَّلب، وجَزْمُه بلامِ الأمر أولى من جَعْلِه جزمًا في جوابِ الأمر[2]، وجَزْمُ الفعلِ المضارع يُشيرُ إلى أمرِ النَّبيِّ ﷺ بأن يتركَ الكفّارَ يخوضون في باطلهم، ويلعبون، حتّى يحينَ موعدُ يومِ القيامة الَّذي وُعِدوا به، بما يفيدُ بأنَّ اللّه تعالى يمنحُهم فُرصةً مؤقَّتة، يستمرّون فيها على حالهم هذه، ممّا يدلُّ على شدَّةِ ضلالهم وإصرارهم على حالهم، وبُعْدِهم عن الحقِّ، وعلى نهايتهم المحتومة، وفي هذا من التَّهديدِ والوعيد ما فيه.

الغرضُ من التَّعبير بالمجاز في: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾:

ذَمُّ انشغالِ الكفّار بالباطل قولًا وفعلًا في صورة محسوسة تشنيعًا عليهم

قوله: ﴿يَخُوضُواْ﴾ استعار الخوضَ في الماء والطّين للحديث الباطل، وللجِدال واللَّجاج غيرِ المحمودِ، والرَّديءِ مِن الكلام[3]، يُقالُ: فلانٌ يَخوضُ، أي: يَتكلَّمُ بما لا يَنْبغي، وتَخاوَضوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضوا، وتَداخَلَ كَلامُهُم[4]، ويُطلقُ اللَّعبُ على كلِّ عَملٍ لا يُجدي نَفعًا[5]، وقد جمعَ بين خوضِ الكفّار ولَعبِهم؛ انعكاسًا لحالهم من الضَّلالِ وعدمِ الجَدِّيَّة في التَّفكير بالحقِّ، فالكفّارُ قد جمعوا بين جدالهم المذموم وكَذِبهم وباطلِهم، واستهزائِهم بالإسلام، واستخفافِهم بالحقِّ، فأخرجتْهُ الاستعارةُ في صورة حِسِّيَّة مذمومة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (لعب).

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾، ودلالتُه في: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾:

غايةُ خوضِ الكافرين ولعبِهم هو ملاقاتُهم لليوم الموعود

﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيدُ انتهاءَ الغاية في المستقبل، أي: دلَّ التَّركيبُ الفعليُّ (حتّى والفعل المضارع) ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ على المستقبل، فالغايةُ للخوضِ واللَّعب إنَّما هي ملاقاتُهم لليوم الموعود، والمعنى: فَذَر يا مُحَمَّدُ هَؤُلاءِ المُفتَرِينَ عَلى اللّه، الواصِفِيهِ بأنَّ لَهُ ولَدًا، يَخوضوا في باطِلِهِم، ويلعَبوا في دُنياهُم إلى يومٍ يُصلِيهِمُ اللّه بِفرِيَتِهِم عليهِ جَهَنَّمَ، وهو يومُ القِيامَةِ[1]، وهذا يُشير إلى أنَّ الكفّارَ سيظلّون مستمرِّين في غَيِّهم وخوضِهم ولَعبِهم إلى أجلٍ محدود، وهو يومُ القيامة الَّذي وُعدوا به، فهو سبحانه يُمهلُهم، ولا يُهْمِلُهم، وسيحاسبهم على ما كان منهم.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُلَٰقُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مقابلةُ المشركين لليومِ القريبِ الموعودِ سيكون مفاجأةً لم يتوقَّعوها

اختارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ باللِّقاء، وأتى به بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو مجاز بالاستعارة يُفيد تصويرَ حالةِ الكافرين حين يقابلون يومَهم الموعود، الَّذي لم يكونوا يتوقَّعون ملاقاتِه ومقابلتِه، ولم يُؤمنوا به، وقد استقبلهم، وقابلهم وجهًا لوجهٍ، وصادفَهم وفاجأهم، وكان قريبًا منهم، إلى درجةِ التَّماسِّ والاتِّصالِ والمواجهةِ بقوَّة، فأدركوه حينها حِسًّا وبصرًا وبصيرةً، حين لا ينفعُ النَّدم؛ إذِ اللِّقاءُ هو مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا؛ مواجهةً أو تماسًّا، أي: بقوَّة، وكأنَّه قريبٌ منه، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحِسِّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة[2]، وفي إسنادِ الملاقاةِ إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ مجازٌ لغويٌّ؛ إذ نُسبَ لليوم إرادةٌ وإدراكٌ، وكأنَّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقي).

اليومَ قابلَهم، واستقبلهم وجهًا لوجه، وفاجأهم بملاقاته، وكان قريبًا منهم إلى درجةِ التَّماسِّ والاتِّصالِ والمواجهةِ بقوَّة، بما يُعْطِي تصويرًا لهذا اللِّقاء، وقوَّةً في المفاجأة، وتهديدًا ووعيدًا من ذلك اليوم، ويُشيرُ إلى حتميَّةِ وقوعِ يومِ القيامة.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في: ﴿يُلَاقُواْ﴾:

قوَّةٌ في المواجهة الحتميَّةِ ليوم القيامةِ، وسرعةٌ في وقـوعِ ذلك اليوم

قرأ الجمهور ﴿يُلَاقُواْ﴾ بضمِّ الياء وفتح اللّام وضَمِّ القاف وبألف بعد اللّام، على وزن (يُفاعوا)، على أنَّه مضارع (لاقى)، وهو على وزن (فاعَل) من الملاقاة، وصيغةُ المفاعلة مجازٌ في أنَّه لقاءٌ محقَّقٌ، وقرأه أبو جعفر ﴿يَلْقَوْاْ﴾ بفتح الياء وسكون اللّام وفتح القاف، على أنَّه مضارع المُجرَّد (لقى) الثُّلاثي[1]، وفي الجمع بين القراءتين إثراءٌ للمعنى وتنوُّعٌ في الصَّوت؛ إذ إنَّ قراءة الجمهور تُفيدُ المواجهةَ الحتميَّةَ ليوم القيامة بشكلٍ أقوى، بينما قراءةُ أبي جعفر أتَتْ أخفَّ، ممّا قد يُعطي إيحاءً بالسُّهولة والسُّرعةِ في وقوعِ ذلك اليوم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَوْمَهُمُ﴾:

يومُ القيامةِ هو يـومُ الحسابِ والجزاء، ويومُ وعـيـدٍ وعـذابٍ للكافرين

(اليوم) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُواْ يَوْمَهُمُ﴾ يحتملُ أن يكونَ المرادُ به يومَ القيامة، فإنَّهم يومئذٍ يعلمونَ ما فعلوا وما يُفعلُ بهم، ويحتملُ أن يكون يومَ بدر، وكلاهما قد وُعِدوه[2]، أو يومَ موتِهم، فالغايةُ للخوض واللَّعب إنَّما هو يومُ الموتِ؛ لانقطاعهما بالموت، وقد وردَ أنَّ من ماتَ قامتْ قيامته، والأرجحُ بأنَّه يومُ القيامة، فهو اليومُ الموعود[3]، وهو اليومُ العظيم الذي وعدَ اللّهُ تعالى به الخلائقَ للحساب والجزاء، فهو يومُ وعيدٍ وعذابٍ للكافرين، وقد وردَ التَّهديد به في القرآن الكريم، فهو اليومُ المحتوم الَّذي لا مَفرَّ منه.

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267، ومحيسن، المغني في توجيه القراءات: 4/ 232.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 226.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 105.

سرُّ الإضافة في: ﴿يَوْمَهُمُ﴾:

يومُ القيامةِ بالنِّسبةِ للكافرين يومُ تهديدٍ وعذابٍ

خصَّ البيانُ الإلهيُّ الكافرين بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾، ونسبَه إليهم، مع أنَّ يومَ القيامة لجميعِ النّاس مؤمنِهم وكافرهم؛ وذلك لمَجيء اليوم هنا للتَّهديد والوعيد، بأنَّ الكافرين سيواجهون عاقبةَ أعمالِهم الباطلة في ذلك اليوم لا محالة.

الغرضُ من التَّعبير بالاسْم الموصول صفةً:

في الإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ لفتُ انتباهٍ ومزيدُ بلاغةٍ في التَّهديد

أتى النَّظمُ الحكيم بصفة اليوم ﴿ٱلَّذِي﴾ اسمًا موصولًا، فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، ولم يقل: (يومهم الموعود)؛ وذلك لإفادةِ الإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ، ففي الاسم الموصول إبهامٌ، فصَّلَه صلةُ الموصول ﴿يُوعَدُونَ﴾، ممّا يُعطي لفتًا للانتباه، وتشويقًا لمعرفة ما بعدَ الإبهام، وذلك أبلغُ في التَّهديد، فاسمُ الموصولِ يحملُ وعيدًا للكافرين بما سيكونُ فيه؛ بالإضافة إلى أنَّ التَّعبيرَ بصِلة الموصول فعلًا مضارعًا يُعطي تصويرًا للوعيد الَّذي سيكون في هذا اليوم، فيجعله أكثرَ واقعيَّةً في أذهانِ السّامعين.

دلالةُ التَّعبير بالوعد في: ﴿يُوعَدُونَ﴾ على الوعيد:

وعيدُ الكافرين من شرِّ ذلك اليوم ليَحذَروه، ويتجنَّبوه قبلَ فَواتِ الأوان

فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ مشتقٌّ من مادة (وعد)، ويدلُّ في أصله على ترجيَةٍ بقول، ويُستعمل في الخير والشَّرِّ، والوعيدُ لا يكون إلّا بِشَرٍّ[1]، وقد دلَّ هنا على الوعيد بقرينة السّياق الَّذي يحمِلُ التَّهديدَ والتَّحذير للكافرين، فحذَّرهم اللّهُ تعالى من هذا اليوم، ولم يتركْهم هَمَلًا، بل بيَّن لهم الحقَّ والباطل، وفي هذا إقامةٌ للحُجَّة على الكافرين، فلم يأخذهم على غِرَّة، بل أوعدَهم، وحَذَّرهم من هذا المصير.

الغرضُ من بناء الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (وعد).

يُلَقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، أي: عبَّر بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ للتَّركيزِ على المفعول وخطورتِه وأهمّيَّتِه، وهو يومُ يوعَدون، أي: يومُ القيامةِ، ممّا يُعطِي إحساسًا بالتَّهديد والوعيد، وأيضًا إخفاءُ الفاعلِ يُعطي إحساسًا بالرَّهبةِ والخوفِ من الفاعل سبحانه؛ إذ لا يحتاجُ إلى التَّصريح باسمه.

التَّركيزُ على يومِ القيامة أبلغُ في التَّهديد والوعيد والانتباهِ لخُطورته

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العرشُ والكرسيُّ:

العرشُ أعظمُ من الكُرسيِّ، فالكُرسيُّ مقارنةً بالعَرْش أصغرُ بكثير، وقد رويَ أنَّ السَّماواتِ والأرض في جوفِ الكُرسيِّ كحلْقَةٍ مُلقاةٍ في فلاة، والكُرسيُّ في جنبِ العَرْش كحلْقَةٍ في فَلاة، فالعَرْشُ هو أعلى المخلوقات، وأعظمُ العالم أو أكبره بالاتِّفاق[1]، فالعَرْش: اسمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بجَميع السَّماوات، وسُمّي عَرْشًا؛ لأنَّه دالٌّ على عَظَمَةِ اللّه تعالى، كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبَهُ من المُلوك[2]، وأصْلُ (عرش) يَدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ[3]، بينما أصلُ (كَرَسَ) يَدُلُّ على تَلَبُّدِ شَيءٍ فَوقَ شَيءٍ وتَجَمُّعِه[4]، وقد ذُكِرَ العَرشُ في القرآن الكريم أكثرَ من الكُرسيِّ بكثيرٍ، ممّا يدلُّ على عظَمته وأهمِّيَّته، وخُصَّ العَرْشُ هنا بالذِّكْر؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقات، وللتَّناسبِ مع السّياق الَّذي هو سياقُ تنزيهٍ للّه تعالى عن كلِّ شريكٍ وولدٍ.

العَـرْشُ أعلى المخلوقات وأعظمُ العالِم وأكبرُ من الكُرسيِّ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/ 190، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 387، والكرميّ، إتحاف ذوي الألباب، ص: 77.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 249.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرس).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"